منهج دراسة وتفسير الظاهرة القرآنية عند مالك بن نبي [1]

أ.د طيبي مسعود

رئيس قسم الفلسفة بالمدرسة العليا للأساتذة بوزريعة

ملخص:

يطرح المقال موقف مالك بن نبي، المفكر الجزائري المعاصر، من منهج المفسرين المسلمين القدامى للقران الكريم، ومناهج المستشرقين المشككين في المصدر الالهي للقران الكريم ونبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، ويتطرق الى رأي مالك بن نبي الذي يدعو فيه الى ضرورة تجديد مناهج تفسير القرآن الكريم وفق المناهج العلمية المعاصرة، كما يرى في كتابه "الظاهرة القرآنية"، وتجاوز تفسير المسلمين القدامى الذين اكتفوا فيه بالشروح اللغوية والروايات المتواترة، ونقد المناهج الغربية المغرضة لدى المستشرقين في تأويلهم للقران الكريم والسيرة النبوية وجحودهم للرسالة الإسلامية، والدعوة إلى الرد عليهم بالإعجاز العلمي في هذا لعصر.

المفردات الدالة: منهج، تفسير، القرآن، الإعجاز العلمي، الظاهرة، الظاهرة القرآنية، المفسرون، المستشرقون، المنهج العلمي.

Résumé :

L'article présent l'opinion de Malek ben Nabi, le penseur algérien contemporain, sur la méthode des anciens interprètes musulmans du Coran, et les approches sceptiques des orientalistes contre la source divine du Coran et la prophétie de notre messager Mohammed, et il appelle (Malek ben Nabi) pour une nécessité de renouveler les méthodes d'interprétation du coran selon les méthodes scientifiques modernes, Comme il l'aperçoit dans son livre "le phénomène coranique", et dépasser l'interprétation des anciens musulmans qui étaient satisfaits d'explications linguistiques et de récits fréquents, et il critique les orientalistes tendancieux dans leurs interprétations du Coran et de la biographie du prophète et de leur arrogance envers le message islamique, et appelle à y répondre par le miracle scientifique de cette époque.

تمهيد:

لقد لفت انتباهي عنوان كتاب" الظاهرة القرآنية" لمالك بن نبي منذ مدة ولم تتسن لي فرصة قراءته بعمق إلا بهذه المناسبة التي طرح فيها موضوع بحث المناهج الفلسفية الغربية، فرأيت أنه من الأنسب معالجة بعض جوانب الموضوع وربطها بـ"منهج دراسة الظاهرة القرآنية عند مالك بن نبي، "رغم أن قراءتي للكتاب المذكور كشفت لي أن مضمونه أوسع من ذلك، إذ أنه يتطرق إلى دراسة الظاهرة الدينية ككل؛ الأديان والكتب السماوية، الأنبياء، وما يتعلق بالمسالة عامة، مع التركيز على الدين الإسلامي، والظاهرة القرآنية بالخصوص، فاستقرت نفسي على عنوان البحث كما هو. والخطة التي رسمتها والجوانب التي عالجتها هي كالآتي:

1- عرض إشكالية البحث التي يطرحها مالك بن نبي في كتاب الظاهرة القرآنية.

2- الدوافع والأسباب التي دفعته إلى انجاز هذا البحث.

3- تحديد مفهوم الظاهرة القرآنية ومنهج دراستها وتفسيرها.

4- نماذج منهجية في دراسة وتفسير الظاهرة القرآنية.

5- قيمة الدراسة ومدى فاعليتها.

1- عرض إشكالية البحث التي يطرحها مالك بن نبي في كتاب الظاهرة القرآنية:

إن المشكلة الرئيسية التي يطرحها كتاب الظاهرة القرآنية لمالك بن نبي تتمثل" في البحث عن المصدر الحقيقي للقرآن.

وفيما إذا كان هذا الكتاب كما يدعي المتشككون هو من مصدر علوي إلهي أم هو "من علم وإدراك من أرسل إليه، أو من معرفة بشرية على وجه العموم؟"[2].

وفي نفس الوقت يعالج بالتحليل والمناقشة طرح المتشككين في مصدر القرآن من المستشرقين والمتأثرين بهم من بعض الباحثين المسلمين أنفسهم، وإظهار حقيقة مناهجهم المغرضة، وفيما إذا كانت حقا هي مناهج بحث موضوعية، الغاية منها اكتشاف الحقيقة كما هي أم الغرض منها البلبلة وتمويه الحقيقة وإشباع ميولاتهم الخفية والمعلنة التي تكشف عن مدى تعصبهم وحقدهم وبغضهم للإسلام.

إن تصدي مالك بن نبي لمثل هذه الدراسات الإستشراقية التي امتدت يدُها إلى نخبة من المفكرين العرب في هذا العصر، اقتضى منه الدفاع عن العقيدة بنقده لأساليب طروحاتهم المغرضة وإبطالها، والحرص في المقابل على تطبيق المنهج العلمي السليم في دراسة الظاهرة القرآنية دراسة علمية موضوعية، ولم يغفل بالمناسبة ضرورة إعادة النظر في أساليب تفسير القرآن والعمل على تجديدها وجعلها تتلاءم وتتطور باستمرار كلما تطورت الثقافة وتطور العلم في نتائجه.

إن نوع الدراسة التي تفضل بها مالك بن نبي في هذا البحث تعددت مناحيها وأبعادها، اختلط فيها علم تفسير القرآن، بالإعجاز العلمي للقرآن، بعلم العقائد الإيمانية أو علم الكلام، ولكنها تضافرت جميعا فيما بينها لتحقيق غايات مشتركة، كما يرى الأستاذ محمد عبد الله دراز[3] في تقديمه للكتاب[4].

1- هي تلك المسألة التي ألزم مالك بن نبي نفسه على حلها، بإيجاد الأسس العقلية الثابتة "للإيمان بالمصدر الإلهي لهذا الكتاب وتسليط الأضواء عليها"[5].

2- الاهتمام بتحديد منهج علمي تحليلي لدراسة الظاهرة القرآنية، "وهو منهج يحقق من الناحية العملية هدفا مزدوجا هو:

أ- أن يتيح للشباب المسلم فرصة التأمل الناضج في الدين.

ب- أنه يقترح إصلاحا مناسبا للمنهج القديم في تفسير القرآن"[6].

2- الدوافع والأسباب التي دفعته إلى انجاز هذا البحث:

أ- إن مركز اهتمام مالك بن نبي في هذا الكتاب، هو تطور الثقافة في العالم الإسلامي الذي يمر بمرحلة خطيرة، "إذ تتلقى النهضة في العالم الإسلامي أفكارها واتجاهاتها الفنية عن الثقافة الغربية[7]" وهي لا تقتصر على الحياة الفكرية واليومية للمجتمع وخاصة الشباب المثقف منه، بل امتدت وبطريقة غامضة إلى الحياة الروحية[8].

ويشير هنا مالك بن نبي، إلى خطورة ما يقوم به المستشرقون في الغرب كواقع لا جدال فيه، تجاه الحضارة الإسلامية عامة وتجاه الدين خاصة، إذ أن أعمالهم الأدبية "قد بلغت في الواقع درجة خطيرة من الإشعاع لا نكاد نتصورها"[9].

وحسبه دليلا، أننا نجد بعض هؤلاء المستشرقين حتى أساتذة في جامعتنا أو أعضاء في مجامعنا اللغوية والأدبية.

كما يلفت الانتباه إلى عدد رسائل الدكتوراه التي ينتجها الطلبة المصريون والسوريون آنذاك، في السربون والجامعات الأوروبية، ونوع هذه الدراسات التي أصر فيها الباحثون وهم أساتذة الغد في الجامعات العربية والإسلامية على: "ترديد الأفكار التي زكاها أساتذتُهم الغربيون"[10].

وعلى هذا السبيل استطاع الإستشراق التوغل بعمق في مؤسساتنا وحياتنا العقلية محددا بذلك اتجاهاتها الفكرية والثقافية والتاريخية بدرجة كبيرة.

والنموذج الذي يقع عليه اختيار مالك بن نبي هنا، هو نموذج المستشرق مرجليوث الانجليزي اليهودي الأصل David Samuel Margolioth (1858 -1940) وقصته مع الشعر الجاهلي، الذي نشر عام 1925 بحثا في مجلة الجامعية الأسيوية الملكية بانجلترا عنوانه The original Arabic Poetry والذي ترجم ونشر بإحدى المجلات

المصرية آنذاك، افترض فيه مرجليوت؛ بأن الشعر الجاهلي "ليس وليد فترة ما قبل الإسلام، بل هو نتاج مرحلة تالية لظهور الإسلام"[11].

وصفه مالك بن نبي (بالديناميت) الذي أراد به صاحبه أن ينسف كل مناهج التفسير القديم، ويستبدلها بمنهج جديد، وخلال عام 1926، أي بعد عام فقط، نشر طه حسين كتابه المشهور(في الشعر الجاهلي)، فهذا التسلسل التاريخي في نظر مالك بن نبي، يثبت مدى "تبعية أفكار بعض قادة الثقافة العربية الحديثة للأساتذة الغربيين"[12]. وسيتضح هذا الفرض الذي افترضه مرجليوث وتأثر به طه حسين في كتابه حول الشعر الجاهلي "من خلال عرضه لمستشرق آخر هو هذه المرة المستشرق الفرنسي كليمان هوار[13] (Clement Huart) 1929/1854.

زعم هذا الأخير في فصل طويل نشرته له المجلة الأسيوية سنة 1804، وهذا قبل (مرجليوث) يدعي فيه صاحبه، أنه اكتشف مصدرا جديدا وقيما للقرآن، هو شعر (أمية بن أبي الصَّلت)[14] إذ قارن بين هذا الشعر الذي ينسب إلى أمية بن أبي الصَّلت وبين آيات من القرآن، وانتهى من هذه المقارنة بنتيجتين كما يرى طه حسين[15].

1- أن هذا الشعر الذي ينسب إلى أمية صحيح، فهو غير منحول كالأشعار الأخرى، لان هناك فروقا بين ما جاء فيه وما جاء في القرآن من تفصيل بعض القصص، ولو كان منتحلا لكانت المطابقة تامة بينه وبين القرآن، وإذا كان هذا الشعر صحيحا يجب في (رأي كليمان هوار)، أن يكون النبي قد استعان به قليلا أو كثيرا في نظم القرآن[16].

2- إن صحة هذا الشعر واستعانة النبي به في نظم القرآن يفسر محاربة المسلمين لشعر أمية ومحوه ليستأثر القرآن بالجدة وليصح انفراد النبي بالوحي ونزوله من السماء[17].

ورغم أن طه حسين يظهر الحسم في الرد على ادعاء (كليما هوار) ومحاولة دحض حججه منطقيا، إلا أننا نجده في موضع آخر، يعلن صراحة موقفه المؤيد لانتحال الشعر الجاهلي بقوة، إذ يقول إن:أول شيء أفاجئك به في هذا الحديث، هو أني شككت في قيمة الشعر الجاهلي، وألححت في الشك، أو قل ألح علي الشك،.. حتى انتهى بي هذا إلى القول؛ بأن الكثرة المطلقة مما نسميه شعرا جاهليا ليس من الجاهلية في الشيء، وإنما هي منتحلة مختلفة بعد ظهور الإسلام، فهي إسلامية تمثل حياة المسلمين وميولهم وأهوائهم أكثر مما تمثل حياة الجاهليين.. وإنما بقي من الشعر الصحيح قليل جدا لا يمثل شيئا ولا يدل على شيء، ولا ينبغي الاعتماد عليه في استخراج الصورة الأدبية الصحيحة لهذا العصر الجاهلي"[18].

ونتيجة لهذا الموقف من الشعر الجاهلي الذي تأثر فيه بموقف المستشرقين منه، أعلن انتهاج منهجهم في الدراسات الأدبية، وهو منهج العلم والفلسفة كما يرى، وهو المنهج الذي استحدثه ديكارت بداية العصر الحديث، والقاعدة الأساسية التي يقوم عليها هذا المنهج، هو أن" يتجرد الباحث من كل شيء كان يعلمه من قبل، وأن يستقبل موضوعه خالي الذهن مما قيل فيه خلوا تاما"[19].

ورغم تصدي أنصار القديم للمنهج الديكارتي، كما يرى حين ظهوره، "فقد كان من أخصب المناهج وأقومها وأحسنها أثرا، وأنه جدد العلم والفلسفة تجديدا.. وأنه الطابع الذي يمتاز به هذا العصر الحديث"[20].

ودون التعليق على منهج ديكارت العقلاني الذي اعتمد فيه على الشك والتفكير لإثبات الوجود، وهو منهج له ايجابياته وسلبياته التي تصدى لها النقاد بشدة، مما أدى إلى ظهور نزعات علمية وفلسفية أخرى، كان لها الشأن الأكبر في الاهتداء إلى المنهج العلمي الصحيح، الذي بموجبه تطور العلم وتطورت الفلسفة والحضارة ككل وهو المنهج التجريبي.

نستنتج من عرضنا هذا، مدى تأثر طه حسين بمواقف المستشرقين تجاه الشعر الجاهلي والقرآن الكريم، ومدى سخطه على مناهج البحث الكلاسيكية والشك في صحة التراث والدين وتاريخ الأدب وغيرها، وهو ما عرضه إلى الامتثال أمام المحكمة للدفاع عن نفسه آنذاك، ضد التهم التي قد وجهت إليه كأستاذ جامعي، من أطراف مختلفة، تتهمه بالتشكيك في مصدر القرآن، والقول بانتحال الشعر الجاهلي لغرض ديني، والأخذ برأي المستشرقين، إلا أن المحكمة برأته باسم حرية الفكر.

وخلاصة ما تهدف إليه مسألة انتحال الشعر الجاهلي لدى المستشرقين ومن سار في أعقابهم من المفكرين العرب، هي الطعن في حقيقة النبوة ومصدر القرآن الكريم، والعقيدة الإسلامية ككل؛ وأن النبي في نظرهم، تأثر في وضعه للقرآن بالنصرانية واليهودية وأخبار عاد وثمود وصالح، وأخذ من الثقافات التي اتصل بها العرب وعبر عنها الشعر الجاهلي قبل انتحاله، لينفرد الدين الإسلامي بمختلف عناصره ومبادئه بهذه الثقافة التي تأسس عليها الدين.

ب- والسبب الثاني الذي أثر في تأليف كتاب "الظاهرة القرآنية" لمالك بن نبي، إلى جانب خطورة المناهج والدراسات الإستشراقية، التي اعتنقتها نخبة من المفكرين المحدثين والمعاصرين في الوطن العربي، هو أن منهج التفسير القديم، الذي أصبح لا يتلاءم مع تطور نتائج العلم الحديث، وهو المنهج الذي يتبناه بعض الفقهاء وعامة الناس، وهو المنهج المؤثر في صيرورة التاريخ عندنا لأن عامة الناس تمثل الرأي العام السائد في المجتمع، وليس رأي النخبة القليلة المثقفة ثقافة علمية.

وكمثال لتبرير هذا الموقف، يرى مالك بن نبي، أنه في العالم الإسلامي اليوم، توجد "طبقة مثقفة مقتنعة بحركة الأرض، ولكن هناك جمهورا كبيرا من الدراويش، وشعبا من الجُهَّال، من كل نوع، يصر على اعتقاده بأن الأرض ساكنة تحملها العناية الإلهية على قرن ثور"(21).

إن مشكلة التفسير القديم تتمثل في اعتماده على الشروحات اللفظية والأدبية والتخمينات التي لا مبرر علمي لها ولا لأصحابها في الكثير من الحالات، إذ لا يزال التفسير القديم لا يواكب تطور العلم، وهوما جعله في موضع حرج أمام الخصوم المعاصرين، وعليه:" فمشكلة التفسير تظل خطيرة بالنسبة لاعتقاد الفرد الذي شكلته مدرسة ديكارت من جهة، وبالنسبة لمجموع الأفكار الدارجة التي هي أساس الثقافة الشعبية من جهة أخرى"[22].

ولا ينفي مالك بن نبي محاولات ضئيلة قام بها بعض دعاة التجديد في هذا العصر، إلا أنها لم تفِ بالغرض المطلوب، كالتفسير الكبير الذي ألفه الشيخ الطنطاوي جوهري، فهو عبارة عن إنتاج علمي ضخم لكنه في نظره "لا ينطوي على أقل اهتمام بتحديد منهج"[23]، واكثر من ذلك، فهو يعبر عن التكديس "تكديس المعلومات طبعا، بحيث يصبح هذا العمل الشاق كله أقرب الى دائرة معارف منه الى تفسير القرآن".[24]

ولا يكاد يختلف تفسير الشيخ رشيد رضا، الذي اتبع فيه شيخه الإمام محمد عبده، وكان غرضه أن يخلع صبغة عقلية على المنهج القديم، إلا أنه لم يستطع تعديل طريقة التغيير تعديلا جوهريا رغم أنه خلق في الصفوة المسلمة التي تعيش التجديد اهتماما بالنقاش الديني(25).

3- تحديد مفهوم الظاهرة القرآنية ومنهج دراستها وتفسيرها:

معنى الظاهرة القرآنية: وهل اختياره لمصطلح "الظاهرة" له ما يبرره، خاصة وأنه مصطلح غير معتاد في مثل هذه الدراسة عند السلف؟

إن مالك بن نبي لا يريد تكرار منهج المستشرقين الذي ركز على مقارنة الشعر الجاهلي بالقرآن والظاهرة الدينية ككل، ولا منهج القدامى من الفقهاء الذي يعتمد

على مجرد الشروحات اللغوية، وإنما أراد أن يتجه إليها مباشر يسألها ويرغمها على الإجابة عن نفسها، بوصفها ظاهرة تتكرر، لأن كما يقول: "تكرار الشيء في ظروف معينة يدل على صحته"[26]، وعليه: فهو لا يريد دراستها على غير المعنى الذي يستسيغه التحديد العلمي للكلمة، "فالظاهرة هي الحدث الذي يتكرر في الظروف نفسها مع النتائج نفسها"[27].

ومن هنا يمكن أن تتسنى له درستها وملاحظها كظاهرة تتكرر، على ضوء الديانات السماوية الأخرى، كما يمكنه أن يدرس هذه الديانات كظاهرة تتكرر أيضا ي ضوء الظاهرة القرآنية، على قاعدة "أن حكم العام ينطبق على الخاص قياسا، وحكم الخاص ينطبق على العام استنباطا"[28].

كما أنه في إمكانه أن ينتهج منهج التحليل النفسي للظاهرة، سواء كانت الظاهرة نبوية أو قرآنية أو دينية عامة، ويضرب لذلك مثالا كمايلي: وهو أن لو أتيح لعلماء الطبية أن "يحملوا قطعة حديد على الكلام عندما تكون معرضة للتأثير المغناطيسي لأسعدهم دون ريب أن يسألوها على مجموعة من المعلومات الخاصة بحالتها الباطنية"[29]، بدلا من افتراضهم للفروض التي قد يصعب إحصاؤها رياضيا.

ففي إمكان الحال النفسية للنبي أن تحدثنا عن نفسها وتبرهن عليها، ويمكن التماس مدى اقتناعه وتحققه الشخصي، لأن علائم صدق النبي "لا تنحصر في عباراته فحسب، بل في عالمي الطبيعة والنفس أيضا، كما يقول القرآن الكريم نفسه[30]، قال تعالى: ﴿سنُريهم آياتَنا في الآفاق وفي أنفسِهم حتى يتبينَ لهم أنه الحقُ﴾[31].

ثم، فمن الواجب علينا، في المقام الأول، كما يرى مالك بن نبي، أن نلجأ إلى هذه الشهادة "لكي نثبت القيمة التاريخية للوقائع التي نخضعها لنقدنا، ثم يبقى علينا أن نحل مجموع هذه الوقائع في ضوء العقل المتحرر من ربقة الشك المطلق الذي لا هدف له"[32].

ولا يفوت مالك بن نبي، في سياق كلامه عن معنى الظاهرة القرآنية ومنهج دراستها، أن يشمل كلامه معنى الإعجاز، الذي هو أيضا من البحوث أو العلوم القرآنية التي ينبغي أن يحدد موضوعها ومنهجها، وأن تواكب التطور العلمي أيضا، وأن تتجدد في مفهومها ومنهجها.

لقد انحصر الإعجاز لدى القدامى في "السمة التي تميز بها الأسلوب القرآني في جمال لا يضاهى وجلال مميز، وبالاعتراف الفوري للمعجز عن الإتيان بمثله، وهو الوجه الأقرب منالا لسائر البلغاء من البدو"[33]، إلا أن تطور علوم العصر تقتضي إعادة النظر في أساليب الإعجاز على ضوء المنهج الذي حدده مالك بن نبي لدراسة الظاهرة القرآنية، فالإعجاز في مفهوم مالك بن نبي هو[34]:

أولا: بالنسبة لشخص الرسول صلى الله عليه وسلم، الحجة التي يقدمها لخصومه ليعجزهم بها، ويشترط في هذه الحجة، أن تكون في مستوى إدراك الجميع وإلا فاتت فائدتها، إذ لا قيمة منطقية لحجة تكون فوق إدراك الخصم.

ثانيا: وهي بالنسبة للدين وسيلة من وسائل التبليغ.

ثالثا: ومن حيث الزمن أن يكون تأثيرها بقدر ما في تبليغ الدين من حاجة إليه، تحدد فيه نوع الصلة التي تختلف بين دين وآخر باختلاف ضرورات التبليغ.

4- نماذج منهجية في تفسير ودراسة الظاهرة القرآنية:

أ- التعارض بين آيات القرآن ومشاعر النبي صلى الله عليه وسلم:

في إطار إثبات صدق النبوة صحتها لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وإثبات حقيقة الوحي كمصدر للقرآن الكريم خارج عن الذات النبوية ومنفصل عنها، في إطار منهج التحليل النفسي الذي أقره مالك بن نبي، يشير الأستاذ محمد عبد الله دراز في تقديمه لكتاب الظاهرة القرآنية، إلى مسألة نفسية هامة[35] أكد عليها مالك بن نبي، وهي مسألة التعارض بين توجيه بعض الآيات ومشاعر الرسول صلى الله عليه وسلم: كقوله تعالى: ﴿وإذ تقولُ للذي أنعمَ اللهُ عليه وأنعمتَ عليه أَمْسِكْ عليكَ زوجَكَ واتقِ اللهَ وتُخْفي في نفسِكَ ما للهُ مُبدِيه وتَخشى الناسَ واللهُ أحقُ أنْ تَخْشاه﴾[36].

وقوله تعالى: ﴿عَبَسَ وتَوَلىَّ، أنْ جاءَهُ الأعمى، وما يُدريكَ لَعَلَّه يزَّكَّى، أو يَذَّكَّرُ فتنفعُه الذِّكرى، أمَّا مَنِ اسْتغنى فأنتَ لهُ تَصدَّى، وما عليكَ ألاَّ يَزَّكَّى، وأَمَّا مَنْ جاءَكَ يَسْعَى، وهو يَخْشَى، فأنتَ عنه تلهَّى﴾[37].

فلا نجد أصدق من هذا في نفسية وطبيعة البشر، أن يُبَلِّغَ الكلامُ الذي يُعاتب فيه، ولو كان منه لما قاله، ولو كان غير صادق لأخفاه أو حرفه، ولكنة صادق أمين في نبوته.

ب- وفي هذا الإطار يشير مالك بن نبي إلى ظاهرة أخرى، وهي أن حَدَثَ النبوة المفاجئ وغير المنتظر من الأنبياء والرسل يثير الاضطراب في النفوس والذوات الإنسانية أو البشرية، أول الأمر وهو ما "يدفعها دفعا لا سبيل إلى مقاومته"[38].

إذن، فالأنبياء، كما يرى مالك بن نبي، "أرادوا أولا أن يتملصوا من دعوة النبوة، فقاوموا، ولكن دعوتهم استولت عليهم أخيرا"[39].

ومقاومتهم، كما يرى مالك بن نبي،"تدل على التعارض بين اختيارهم والحتمية التي تطوق إرادتهم وتتسلط على ذواتهم"[40]. فانظر الحالة النفسية التي كان عليها النبي حين أمره جبريل بالقراءة أول مرة، فقال: اقرأ، قال: قلت: ما أقرأ[41]، قال: فغثني[42] به (بنمط

من ديباج فيه كتاب)[43] حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلني، فقال: اقرأ، قال: ما أقرأ، وتكرر الأمر ثلاث مرات، حتى قرأ عليه: اقرأ باسم ربك الذي خلق[44]. فقرأها[45].

هذا الأمر الأول الذي سأعقب عليه فيما بعد، أما الأمر الثاني، فعند مغادرته غار حراء في طريق عودته إلى داره، سمع صوتا يناديه من السماء، "يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل"[46]، فرفع النبي رأسه، فإذا جبريل في صورة رجل صاف قدماه، في أفق السماء، فانبهر رسول الله أمام هذا المشهد المروع وبقي ينظر إليه مبهورا، حتى بعثت خديجة مُرْسَلَها في طلبه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ،هممت أن أطرح نفسي من حالق من جبل، ولأعمدن إلى حالق من الجبل فلأطرحن نفسي منه فلأقتلنها فلأسترحن[47]، فاعتقد النبي نفسه بأنه شاعر أو مجنون، أو كما قال: "ولم يكن من خلق الله أحد أبغض من شاعر أو مجنون كنت لا أطيق أن أنظر إليهما"[48].

نستنتج من عرض أول لقاء بالوحي ما يلي:

1- لو كان القرآن من وضع النبي كما يدعي المستشرقون، وربما أيضا طه حسين آنذاك لاستطاع النبي القراءة بسهولة ولأقدم عليها بطلاقة ورغبة، ولكنه كان العكس.

2- تبين من السيرة مدى انبهار النبي أمام المشهد العظيم ورؤية جبريل على الصورة التي رآه فيها، والرسالة التي أمره بها من عند الله، وكيف فقد وعيه، حتى أرسلت إليه خديجة مُرْسَولَها بعد مدة وهو واقف في مكانه، وكيف فكر في قتل نفسه والتخلص منها بالارتماء من أعلى قمة في الجبل.

وكيف كان يرتعد عندما وصل إلى خديجة من الحمى الباردة، كما يقال، فطلب منها في الحال أن تدثرهكل هذا يبطل افتراض المتشككين ويثبت نفسيا وعقليا صدق النبوة والمصدر الإلهي للرسالة الإسلامية وللقرآن الكريم.

كما أن ظاهرة النبوة أو الرسالة الدينية، يمكن دراستها كظاهرة علمية تتكرر، كما لو كانت ظاهرة طبيعية أو نفسية أو اجتماعية، وعليه كما يرى مالك بن نبي، أن حدث النبوة ليس حدثا فريداً حتى يمكن أن يكون غريبا، "بل على العكس من ذلك، هو ظاهرة تتكرر بالكيفية نفسها"[49] ويعد هذا شاهدا علميا في نظر مالك بين نبي، يمكن الاعتماد عليه في إثبات صحة وجودها في الواقع المتفق مع العقل.

وهذا ينطبق على ظاهرة النبوة كظاهرة مستمرة التكرار بانتظام بين قطبين تاريخيين منذ إبراهيم عليه السلام إلى محمد صلى الله عليه وسلم، وليس ظاهرة فريدة في نوعها[50].

وينطبق على كل الديانات بمختلف أركانها، كالنبوة، والكتب السماوية، وحوادث الوحي، وغيرها وهو ما يسمح لنا بمقارنة الأديان مع مراعاة ما ثبت على حال حدوثه كما هو الأمر بالنسبة للقرآن الكريم وما تعرض للتحريف والتغيير مثلما هو الحال بالنسبة للكتب السابقة.

الهوامش:

[1]- المقال عبارة عن مداخلة تقدمت بها لملتقى مخبر التربية والابيستيمولوجيا،:بتاريخ:19/ 04/ 2017.

[2]- محمد عبد الله درّاز، في تقديمه لكتاب مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، ترجمة عبد الصبور شاهين، تقديم الأستاذين محمد عبد الله دراز ومحمد محمود شاكر، دار الفكر، ط.4 دمشق 1420هـ/ 2000م، المقدمة، ص:10.

[3]- الأستاذ الدكتور محمد عبد الله درّاز 1894 /1958 من كبار العلماء الأزهريين الذين خدموا القرآن والفلسفة والأخلاق، واتصلوا بالثقافة الغربية ومناهجها العلمية والفلسفية، ونقحوا الفكر الإسلامي بوسائل الحضارة الحديثة لغة ومنهجا، له عدة مؤلفات منها: النبأ العظيم، ودستور الأخلاق بالفرنسية، ومدخل إلى القرآن الكريم، وغيرها.

[4]- محمد عبد الله دراز، المصدر نفسه، المقدمة، ص10.

[5]- مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، تقديم الأستاذين، محمد عبد الله دراز، ومحمود محمد شاكر، ط.4 دار الفكر بدمشق '420هـ . 2000م، ص53.

[6]- نفسه، ص53.

[7]- نفسه، ص53.

[8]- نفسه، ص54.

[9]- نفسه، ص54.

[10]- نفسه، ص54.

[11]- شمسية خلوي، في مقال الكتروني لها بتاريخ 2012، أنظر الموقع:

http://www.alukah.net/sharia/0/46319/

[12]- مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية مصدر سابق، ص: 56. [1]

[13]- كليما هوار مستشرق فرنسي خريج مدرسة اللغات الشرقية، أتقن العربية والفارسية والتركية واليونانية، عمل في وزارة الخارجة الفرنسية، أرسلته إلى إسطنبول كنائب للقنصل ثم قنصلا، وأرسلته إلى دمشق، عضو المجمع اللغوي العربي، والفرنسي، له عدة كتب عن الشرق، طعن في نبوة سيدنا محمد والقرآن الكريم، أدعى أن النبي اقتبس في القرآن من الشعر الجاهلي، لذا انتحل المسلمون الشعر الجاهلي حتى لا يظهر أثره في القرآن، إذن، قال بانتحال الشعر الجاهلي بعد الإسلام، تأثر به وبغيره طه حسين في الشعر الجاهلي.

[14]- **أمية بن أبي الصَّلْت** الثقفي، ويقال له: ابوالحكم شاعر جاهلي ومن رؤساء ثقيف، اشتهر بالحنفية والتوحيد، وكان من الدعاة الى نبذ الأصنام وتوحيد الإله، وهو من الطائف، عايش النبي وحاوره ولم يسلم، توفي عام 30 من الهجرة. هذه أبيات من أشعاره في الإله.

أرَبّاً واحداً أم ألف ربّ... أدين إذا تقسمت الأمور.

ليغفرَ ذنبيَ الربُّ الغفور... ولكن أعبد الرحمن ربي

[15]- طه حسين، في الشعر الجاهلي، دار المعارف للطباعة والنشر، سوسة تونس (دون تاريخ) ص:94.

[16]- نفسه، ص:94.

[17]- نفسه، ص:94.

[18]- نفسه، ص:19.

[19]- نفسه، ص:23.

[20]- نفسه، ص:24.

(21)– مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، المصدر السابق ص:58.

(22)– نفسه، ص: 58.

(23)– نفسه، ص: 58.

(24)– مالك بن نبي، إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي، ط.1 دار الإرشاد، بيروت – لبنان1388هـ/ 1969م.

(25)– نفسه، ص: 64.

(26)– نفسه، ص: 64.

(27)– نفسه، ص: 64.

(28)– نفسه، ص: 64.

(29)– نفسه، ص: 92.

(30)– محمد عبد الله دراز، المصدر السابق، ص: 11.

(31)– فصلت: الآية 53.

(32)– مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، ص: 88.

(33)– محمد عيد الله دراز، نفس المصدر، ص:10.

(34)– مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، المصدر السابق، ص:65.

(35)– محمد عبد الله دراز، المقدمة، ص:11.

(36)– الأحزاب، الآية 37.

(37)– سورة عبس، الآيات: من 1 إلى 10.

(38)– مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، ص92.

(39)– نفسه، ص: 92.

(40)– نفسه، ص: 92.

(41)– هكذا وردت في الأصول ولدى الطبري، أما في شرح المواهب، وردت: ما أنا بقارئ.

(42)– الغث هو حبس النفس.

(43)– انظر المتحدث، في كتاب، الجماعية في الحكم عند المسلمين والديمقراطية لدى اليونانيين والرومانيين، دراسة تحليلية مقارنة في الفلسفة السياسية، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر 2007 ص51.

(44)– العلق، الآية 1.

(45)– ابن هشام، السيرة النبوية؛ ج1 دار إحياء التراث العربي بيروت . لبنان (دون تاريخ) ص:252.

(46)– نفسه، ص: 252.

(47)– الطبري، تاريخ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، منشورات دار الكتب العلمية، المجلد الأول، ط.1 بيروت . لبنان1417هـ/1997م ص 531.

(48)– نفسه، ص:532.

(49)– مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، ص: 87.

(50)– نفسه، ص: 87.

المصادر والمراجع:

1- القرآن الكريم.

2- محمد عبد الله درَّاز، في تقديمه لكتاب مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، ترجمة عبد الصبور شاهين، تقديم الأستاذين محمد عبد الله دراز ومحمد محمود شاكر، دار الفكر، ط.4 دمشق 1420هـ/ 2000م، المقدمة.

3- مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، تقديم الأستاذين، محمد عبد الله دراز، ومحمود محمد شاكر، ط.4 دار الفكر بدمشق. '420هـ. 2000م.

4- مالك بن نبي، إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي، ط.1 دار الإرشاد، بيروت – لبنان1388هـ/ 1969م.

5- طه حسين، في الشعر الجاهلي،دار المعارف للطباعة والنشر، سوسة- تونس(دونتاريخ).

6- طيبي مسعود، الجماعية في الحكم عند المسلمين والديمقراطية لدى اليونانيين والرومانيين، دراسة تحليلية مقارنة في الفلسفة السياسية، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر 2007.

7- ابن هشام، السيرة النبوية؛ ج1 دار إحياء التراث العربي بيروت . لبنان (دون تاريخ).

8- الطبري، تاريخ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، منشورات دار الكتب العلمية، المجلد الأول، ط.1 بيروت . لبنان، 1417هـ/1997م.

9- شمسية خلوي، في مقال الكتروني لها بتاريخ 2012، أنظر الموقع:
http://www.alukah.net/sharia/0/46319/